كيف صارت دمشق عاصمة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

في سنة ٦٦٠ اجتمع قوّاد الجيش السوري في اورشليم وبايعوا بالخلافة معاوية بن ابي سفيان ، والي الشام منذ عشرين سنة . فلزمه اذاً ان يختار مدينة يقيم فيها رسمياً ، ويجعلها عاصمة الخلافة الجديدة . ولم يكن ليفكر بالمدينة النبوية ولا بالكوفة حيث اقام سلفاؤه ، لان سكان هاتين المدينتين كانوا لا يزالون من مناوئي الامويين ، ومن رجال ابداثهم المخلصين . فضلا عن ان السوريين ، الذين مهدوا العقبات في سبيل الخليفة الجديد فاوصلوه الى اعلى مركز في الدولة ، لم يكونوا ليرضوا بعاصمة خارج بلادهم ، لشدة رغبتهم في ان يحفظوا بين ظهرانيهم مركز الامبراطورية العربية .

هذا ولم تكن تخلو سورية من مدائن مهمة مشهورة بتاريخ قديم مجيد يؤهلها لتكون عاصمة الخلافة ، نذكر منها قيسارية ، ولاسيما انطاكية التي كانت ، قبل الف سنة ، العاصمة الرسمية للمملكة السورية . على انها كانت قريبة جداً من ثغور الروم وواقعة في منطقة لا يفتأ الامن مضطرباً فيها لتعرّضها الدائم لغزوات العدوّ . اما قيسارية فان وجودها على الشاطئ الفلسطيني كان يجعلها عرضةً لهجمات الروم ايضاً ، وكانوا لا يزالون سادة البحر المتوسط .

ويظهر لنا ان معاوية فكر اولاً باورشليم ، حيث بويع بالخلافة . دفعه الى هذا ما لتلك المدينة من الصفات والمزايا التي تخلّت عنها سائر المدن المجاورة . فاورشليم يحترمها المسلمون تقريباً احترام اهل الكتاب ، اي اليهود والنصارى ، وهي اول قبلة اتجه اليها الاسلام في اول عهده ، وهي غاية الاسراء ، تلك

الرحلة الليلية التي قام بها محمد ، على قول القرآن (١٧ : ١) . فهذه المزايا هي التي دفعت معاوية ، دون شك ، الى اختيار اورشليم مسرحاً لارتقائه عرش الخلافة سنة ٦٦٠ ، ثم لتأكيده رسمياً تلك البيعة التي بايعه بها جنوده بالاجماع. فاقام فيها السنة الاولى من ملكه ، على الارجح ، لاننا نراه يقبل ، في اورشليم ، سنة ٦٦١ ، في مجلس عام جامع لرؤساء السوريين ، تنازل الحسن بن علي عن مطالبه ومطالب سلالته بالخلافة. وقد كانت المدينة النبوية ، مقرّ الخلافة الاول ، قد سقطت في قبضته قبل ذلك . فلو شاء لكان سار اليها فجعلها عاصمته ، شأنَ الخلفاء السالفين. على اننا نعلم ، بواسطة احد مؤرخي السريان المعاصرين ، ان « معاوية رفض ان ينتقل الى المدينة ، مقرّ محمد » .

اما الكوفة ، عاصمة علي ، فلم تكن لتستوقف نظره ، « لان معاوية — كما يقول مؤرخ آخر — بعد ان ظهر على خصومه ، فضّل الغربيين (اهل سورية) على الشرقيين (اهل العراق) ، لما اظهره الاولون من رغبة في النظام ، ومن اخلاص لدعوته . »

ثم ان انتقال علي بعاصمة الخلافة من المدينة الى الكوفة لم يفد مساعي معاوية فحسب ، بل كان تقدماً سياسياً لا يُنكر. فان العراق بوجوده في نقطة مركزية بالنسبة الى العالم الاسلامي اذ ذاك ، وبفضل ما امتاز به من موارد غنية ، وما فيه من سهولة المواصلات ، كان افضل بما لا يُقاس من مقاطعة الحجاز القليلة الموارد الكثيرة العقبات. على ان اختيار الكوفة مركزاً للخلافة كان يستدعي انتقاداً كالذي وُجّه الى العباسيين اذ اختاروا بغداد عاصمة لخلافتهم . لان هذا الاختيار يتضمن التراجع عن الطموح الى الغرب ، والرغبة عن انشاء سلطة قوية في محيط المدنية الغربية. وهو أمر كان يعاكس كل المعاكسة مطامع معاوية ورجاله السوريين ، ورغبتهم ، صريحةً كانت او ضمنيّة ، في ان يؤسّسوا دولة مهمة على شاطئ المتوسط . واننا لنتحقق هذه المقاصد اذا ما انتبهنا لما قام به معاوية من المشاريع كانشاء المراكب الحربية ، ورغبته في فتح القسطنطينية . وان هذا الرجل المقدام الذي كان يرسم خطط التوسع الخارجي فيطمح الى بسط نفوذه على ابعد ما يمكن من

مناطق الامبراطورية البيزنطية ، والذي كان يرى في سورية افضل مركز لتهيئة جميع المعدّات التي كانت تتطلبها مشاريعه ، ان هذا الرجل لم يكن ليمكنه التفكير بالرجوع الى جزيرة العرب ولا الى العراق ، حتى ولو لم يحفل باعدائه وخصومه من اهل المدينة والعراقيين ، ولو لم يكترث لنفور السوريين الذين رفعوه الى العرش بعد ان ضحّوا في سبيله بانفس ما لديهم .

فيتّجه انه ، وان كان معاوية فكر زمناً ما بجعل اورشليم عاصمة له ، لسرعان ما تراجع عن فكره اذ رأى ما يكتنف المنطقة الاورشليمية خاصة واليهودية عامة من صعوبات المعيشة كقلة الخصب ، ووعورة البلاد وانفرادها وبعدها عن طرق المواصلات المهنة المؤدية الى مملكة الروم ، والى العراق الذي لم يكن الخليفة الجديد ليصرف عنه النظر لمحة طرف . كل هذه الاعتبارات صرفته عن القدس الى اختيار مدينة في سورية . ولما لم يكن بامكانه المكوث في انطاكية او في قيسارية ، وقع اختياره على مدينة قريبة من البادية ، بعيدة عن البحر والثغور ، فتكون من جهة على اتصال دائم بالجزيرة العربية والعراق ، ومن جهة اخرى في مأمن من مفاجآت جيش الروم .

* * *

ولم تكن هذه المدينة سوى دمشق التي عرفها معاوية سابقاً ، اذ كان حاضراً حصار سنة ٦٣٥ الى جنب اخيه يزيد . ثم اقام فيها مدّات متفاوتة اثناء ولايته للشام التي دامت عشرين سنة . فاصبحت دمشق عاصمة للخلافة العربية على عهد الامويين ؛ وظلّت ، بعد سقوطهم ، عاصمة لمنطقة سورية ، والفضل في ذلك عائد لمعاوية .

على ان لدمشق من المركز الجغرافي والمزايا المناخية ما يجعلها جديرة بهذا الاختيار . من ذلك وجودها وسط تلك الواحة العجيبة المعروفة « بالغوطة » ، وقربها من منطقة حوران ذات التلال الوافرة ؛ ومركزها المتوسط بين البحر ووادي الفرات ، وصلاتها الدائمة مع بلاد العرب . كلها صفات اقتصادية ممتازة دفعت المؤرخ يوستينوس الى تلقيبها باشرف مدينة في سورية (*Syriae nobilissima civitas*) . اما من حيث النظام السياسي فكانت دمشق قد

انحطّت الى مركز المدن الثنوية فان ارباب الحكم اليوناني والروماني الغربيين، الذين حفظوا في اوربة مركز حكوماتهم ، كانوا يرون دمشق ، الواقعة في الشرق البعيد وراء سلسلتي لبنان ، ابعد من ان تصلح نقطة مركزية لتنظيماتهم. وكان الرومان قد اعطوها لقب « مستعمرة » . ثم حصّنها ديوقليانوس وجعل فيها مخازن للذخائر والاسلحة . واقامت فيها النصرانية مركز اسقفية كان الاول قدرًا وقيمةً في بطريركية انطاكية. على ان النفوذ السياسي ، في منطقة فنيقية اللبنانية ، ومنها دمشق ، كان لمدينة حمص التي طالما نازعت دمشق الاهمية .

ثم ان البيزنطيين ، في عصر الامبراطورية الشرقية ، صرفوا انظارهم عن دمشق الى بُصرى لما امتازت به هذه المدينة من وجودها وسط منطقة حوران الغنية بالمحصولات ، ومناعتها ، ومقدرتها ، وهي القائمة على حدود البادية ، على مراقبة حركات البدو وضبط طرق دخولهم الى الشام . وكذلك اذا طالعنا الشعر الجاهلي فاننا نرى بُصرى تفوق دمشق اهمية وسمة ذكر . اذ كانت آخر المحطات للقوافل المكية ومركز سوق تجارية مهمة ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب، اذ قدم لزيارة الشام فحلّ في معسكر الجابية ، على مسيرة يوم جنوبي دمشق ، لم يخطر بباله ان يتابع السير الى الشمال فيزور مدينة الغوطة.

كل هذا يشرح لنا كيف ان دمشق ظلت ، حتى قبيل الهجرة ، مدينة ثنوية في المحيط السياسي. وكان من تأثير سلسلة لبنان ان اوقفت عنها تسرّب اللغة اليونانية وما جرّته من عادات وتقاليد ، فظلت المدينة محتفظة اكثر من مدن الشاطئ بصبغتها الآرامية . حتى دخلها الانباط فاحتلوها مدة قصيرة قبيل عصر الميلاد ، فتركوا فيها لغة بلاد العرب وشيئاً من عاداتهم وتأثيرهم. ثم ان هذا التأثير اخذ يتعزز بواسطة المواصلات الدائمة بين دمشق والبادية ، وخصوصاً بينها وبين القبائل العربية الشامية الضاربة في جوار الغوطة ، ولاسيما بعد تأسيس المملكة الغسانية . ثم اخذت هذه المواصلات تزداد سمة واهمية حتى لفتت نظر معاوية ، مع ما قدّمنا من المزايا ، فقرّر جعل دمشق مركزاً لدولته الجديدة وعاصمة للعالم الاسلامي اذ ذاك.

ولم يلبث ان تحقق صواب نظره اذ رأى في دمشق ما لم يكن ليراه في اورشليم او انطاكية او غيرهما من المدن الكبيرة ، من غنى البلاد ووفرة مواردها ، ومن تعلق القوم به واخلاصهم له . فضلًا عن قرب العاصمة من معسكر الجابية حيث جمع جيوشه ، وعن سهولة مواصلاتها مع الجزيرة العربية ؛ ووجودها ، من جهة الشرق ، مراقبةً لطرق الكوفة والعراق ، ولم تكن خمدت فيه بعض نيران الحروب الاهلية التي اضرمتها احزاب علي بن ابي طالب . فاسرع اذًا معاوية الى الاقامة في دمشق ، وباشر بناء قصر دعاه « الخضراء » . وقد لا يكون بنى القصر كله من آساسه ، بل اكتفى بتحسين قصر والي المدينة من قبل الروم ، القائم بجوار كنيسة القديس يوحنا ، التي اضبحت في ما بعد « الجامع الاموي » . وقد دعا عمله هذا كثيرًا من قوّاده واشياعه الى العمل بمثله ، فاستولوا على منازل الدمشقيين التي كان قد هجرها اصحابها في هربهم مع جيوش هرقليوس .

على ان خلفاء بني امية ، اذا استثنينا معاوية وعبد الملك ، لم يقيموا في دمشق الا فترات متقطعة . فكان من جرّاء ذلك ان مضت المئة السنة الاولى للاسلام قبل ان تصبح في دمشق جالية تُذكر من الشعب العربي . ولكن هذا لا يمنع ان دمشق اصبحت عاصمة رسمية ، وانه اصبح من واجب الخليفة الجديد ، ايًا كان محل اقامته ، ان يأتي دمشق ، في اليوم المشهود ، فيبايع فيها بالخلافة .